

العلاقات البريطانية الإثيوبية من حملة (نابير) 1868 إلى غاية تحرير إثيوبيا من الاحتلال الإيطالي 1941.

أ. عبد الرحمن قراش
جامعة الجلفة

لم تكن بريطانيا تهتم بفرض سيطرتها على مناطق القرن الإفريقي ذات الموقع الإستراتيجي الهام في شرق إفريقيا بالقدر الذي كانت تهتم فيه بحماية وتأمين طريقها إلى الهند خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وهو ما تطلب منها ضرورة تأمين حاجيات مستعمرتها (عدن) التي كانت قد سيطرت عليها منذ 1839م . لكن الأمور تغيرت عندما ظهر فرنسا وإيطاليا على سواحل تلك المناطق خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر . حيث سعت بريطانيا إلى توطيد علاقاتها مع شيوخ المناطق الصومالية المطلة على مستعمرتها (عدن) والتي كانت قد بدأتها سنة 1828م من خلال اتفاقية السلام التي عقدها مع شيوخ آل جبر الصومالية . و تعدت هذه العلاقات لتشمل الحبشة أو ما يسمى حاليا بـ(إثيوبيا) ورغم أن بريطانيا كانت لها علاقات صداقة مع حاكم إقليم (شوا) الحبشي بموجب معاهدة عقدها معه سنة 1841م (1)، إلا أنها لم تكن ذات أهمية كبيرة .

وفي ظل هذه الظروف كان على بريطانيا السعي إلى تأمين محيط مستعمرتها (عدن) وتأمين حاجياتها من منتجات تلك المناطق سواء الزراعية أو من المعادن . ولذلك سعت إلى توطيد علاقاتها مع مناطق القرن الإفريقي بما فيها الحبشية التي عقدت معها معاهدة صداقة ثانية سنة 1941م (2). وزادت من اهتمامها بتلك المنطقة ، ففي سنة 1840م وصل الضابط البريطاني (مورسي) إلى (تاجورة) ممثلا لشركة الهند الشرقية البريطانية وعقد معاهدة للصداقة والتجارة مع محمد بن محمود حاكم (تاجورة) تعهد فيها هذا الأخير بنقل المحاصيل من المناطق الداخلية إلى الساحل مقابل تعهد الشركة بتشجيع التجارة في (تاجورة) . و نص هذا الاتفاق أيضا على أن لا يدخل حاكم (تاجورة) في أية علاقات تجارية أو سياسية مع قوى أوروبية أو غيرها خاصة إذا كانت هذه العلاقات تمس بالمصالح البريطانية ، مقابل تعهد بريطانيا بعدم القيام بأي عمل عدواني ضد إقليم (تاجورة). كما نصت أيضا على قبول سلطان (تاجورة) بيع جزر موسى للحكومة البريطانية وهي التي تتكون من ثلاثة جزر كبيرة نسبيا وخمسة جزر صغيرة تفتقد للمياه الصالحة للشرب لكنها صالحة لرسو السفن (3). وذات أهمية إستراتيجية حيث تتحكم في مدخل البحر الأحمر من الناحية الجنوبية ، والتي ولو وقعت تحت سيطرة دولة أخرى منافسة لبريطانيا لشكلت خطرا على الوجود البريطاني في المنطقة .

وفي نهاية 1845م أرسلت بريطانيا بعثة لكشف منطقة (بربرة) بقيادة الملازم (بورتون) Burton بمساعدة ثلاثة ملازمين آخرين انطلاقا من عدن . وانطلقت هذه البعثة من بربرة متجهة غربا إلى (هرر) ثم إلى الجنوب الشرقي نحو زنجبار. حيث كان الملازم (بروتون) أول أوروبي يصل إلى (هرر) لكنه تعرض مع بعثته لهجوم شنه عليهم صوماليون من قبائل العيسى مما أدى إلى مقتل الملازم ستويان وأسر الملازم سبيك Speke بعد إصابته . إلا أنه تمكن من الفرار لاحقا. كما أصيب الملازم بروتون إصابة بالغة وتمكن من الفرار مع أعضاء البعثة الناجين على متن قارب صغير إلى عدن .

طلبت السلطات البريطانية من قبيلة جبر أول تسليم مدبري الأحداث لكن شيوخ القبائل اعتذروا عن ذلك وتعللوا بأن المهاجمين قد توغلوا في الداخل وأن القبض عليهم أصبح غير ممكن . ولذلك قامت بريطانيا بضرب حصار على ميناء بربرة ولم تنسحب حتى دفع الصوماليون تعويضا قدره خمسة عشرة ألف دولارا.

وبعد هذه الحادثة أكتفت بريطانيا بعقد معاهدات مع القبائل الصومالية للحفاظ على مصالحها في تلك المناطق دون التدخل عسكرياً بها. ويظهر ذلك من خلال رد البريطانيين الذي بينوا فيه موقفهم من المنطقة في الرسالة التي أرسلوها إلى أحد كبار شيوخ المنطقة الشمالية للصومال، ألا وهو (شار ماركي علي) الذي كان صديقاً لهم واستولى على (زيلع) سنة 1843م وعرض عليهم رغبته في وضع (زيلع) تحت حمايتهم. ومما جاء في هذا الرسالة أن بريطانيا عازمة على ما يلي:

— عدم التدخل في الشؤون الداخلية ، وفي المنازعات القائمة آنذاك بين شيوخ وحكام منطقة الساحل الإفريقي للبحر الأحمر .

— التركيز على استمرار العلاقات التجارية مع حكام منطقة الساحل ، والعمل على تنميتها .

— إن تدخل الحكومة في مثل هذه الخلافات قد تنتشر أخباره ويبالغ في تقديرها لدى الدوائر السياسية الأوروبية ، الأمر الذي يثير غيرة الحكومات الأوروبية بين المنافسة وحقدتها على الحكومة البريطانية .

— إن الوجود البريطاني في عدن يعني ضمان مخزن ومحطة للفحم في موقع متوسط بين بومباي والسويس ، وليس التدخل أو التوسع فيما وراء عدن .

— إن الحكومة الهندية البريطانية تفضل وجود علاقات صداقة بينها وبين حكام منطقة البحر الأحمر . ولكنها تأسف إذا ما اضطرت إلى اتخاذ إجراءات عنيفة من أجل حماية مصالحها في تلك المنطقة(4).

في هذا الوقت الذي كانت فرنسا وإيطاليا تبدلان جهودهما لإيجاد موطئ قدم لهما على سواحل البحر الأحمر الغربية . حيث قامت فرنسا بشراء منطقة (أوبوك) بجيبوتي الحالية سنة 1862م. وإيطاليا ساعية في طريقها إلى تأسيس محطة لها في (عصب) بإريتريا الحالية . بواسطة تلك الجهود التي كان يبذلها المبشر الإيطالي (سايتو) .

أما الأراضي الإثيوبية فقد كانت أحولها أحسن حالا من المناطق الساحلية المجاورة لها والتي كانت تحت الحكم المصري باسم الدولة العثمانية . فإثيوبيا كانت تحت حكم إمبراطور قوي يدعي (كاسا) . وحد أقاليم البلاد سنة 1855م بعد القضاء على حكامها . وأعلن نفسه إمبراطوراً على الحبشة باسم (تيودور الثاني) .

وقام بعدة إصلاحات مثل توفير الأسلحة وتخصيص الرواتب للجند وإنشاء شبكة من الطرق وإلغاء تجارة الرقيق . وربط مع البريطانيين علاقات حسنة لكنها بدأت تسوء منذ سنة 1864م ، مما جعل (تيودور الثاني) ينتقم من القنصل البريطاني وغيره من الأوروبيين ببلاده. وهو بدون شك ما جعل البريطانيين يقومون بتجريد حملة (نايبر) ضد هسة 1868.

مجريات حملة (نايبر) على إثيوبيا .

أ/ ظروف وأسباب الحملة :

كانت بريطانيا في تلك الفترة تحاول تثبيت نفوذها في إثيوبيا حيث سبق لها أن مهدت طريقها لتحقيق ذلك بإرسال المبشرين والفنيين ليكونوا في خدمة تلك البلاد ويساعدونها على إدخال النهضة الحديثة ، بالإضافة إلى البعثات التبشيرية والرحالة والمستكشفون .

ومن جهته أيضاً عمل (تيودور) على توثيق روابطه ببريطانيا عن طريق قنصلها ببلاده . وكثبات حسن نواياه وشعوره الطيب تجاهها فقد كان حريصاً على حماية وأمن الرعايا البريطانيين في بلاده . فمثلاً عند قتل السيد (بلودين) W.G.Plowden القنصل البريطاني داخل بلاده غضب غضباً شديداً وخرج بنفسه لثأر له ، ف قيل أنه قتل نحو ألفين من سكان المنطقة التي قتل فيها (بلودين) .

أما بريطانيا فقد عينت قنصلا آخر في إثيوبيا مكان (بلودين) وهو السيد كامبيرون Cameron الذي وصلها سنة 1862م حاملا معه مسدسين كهدية من ملكة بريطانيا (فكتوريا) ، نقشت على كل منهما عبارات تهنئة وشكر لتيودور على عطفه على خادمها (بلودين) *.

ونظرا لبراعة كامبيرون السياسية فقد تمكن من توطيد صلاته بتيودور . وبالنظر للحفاوة التي استقبله بها الإمبراطور فقد رأى بأن الظروف مهيأة لربط علاقات متينة بين البلدين ، لذلك بدأ يعمل من أجل هذا تحقيق هذا الهدف ، فاقترح على تيودور إرسال مبعوثين له إلى بريطانيا لعقد اتفاق صداقة وتعاون مع الملكة (فيكتوريا) فأعجب (تيودور) بالفكرة. وكمقدمة لهذه الخطوة كتب الإمبراطور رسالة ودية للملكة سلمها للقنصل كامبيرون عبر فيها عن آماله لإيجاد علاقات طيبة مع بريطانيا . حتى أنه نقل لها فيها همومه السياسية داخل بلاده . لكنه في هذه الفترة حدث شيء لم يكن في صالح إثيوبيا ولا في صالح بريطانيا حيث تم نقل القنصل كامبيرون إلى كسلا في السودان بأمر من وزارة الخارجية البريطانية للقيام بمهمة تشمل عدة أمور من ضمنها التحقيق في تجارة الرقيق ، ودراسة إمكانية إقامة مشروع هناك لزراعة القطن الذي كان قد عرف ارتفاعا كبيرا في سعره آنذاك .

مرت أسابيع ولم يعد كامبيرون إلى إثيوبيا مما جعل تيودور يرتاب في أمر سفره . وأخيرا سمع الإمبراطور بأن كامبيرون لم يسافر إلى بريطانيا وإنما سافر إلى السودان — بلد أعدائه — فبدأ يشك في نوايا بريطانيا واعتبر سفر كامبيرون إلى السودان تواطؤ مع الأتراك والمصريين لغزو بلاده(5) . ومما زاد الأمر توترا هو إهمال وزارة الخارجية البريطانية لرسالة تيودور ، حيث لم يرفعها أحد الموظفين لوزير الخارجية إهمالا منه .

لقد اعتبر تيودور عدم الرد على رسالته إهانة له وتآمر على بلاده من طرف بريطانيا والمصريين . وكرد فعل له فقد أصدر أوامره بإعداد العدة لمواجهة الخطر الذي سيأتي عبر الحدود السودانية وأمر بسجن كافة أعضاء البعثات التبشيرية في (غوندار) كرهائن . وعندما عاد كامبيرون سنة 1864م بعد غياب طويل دام سنتين زج به في السجن ، ومن هنا بدأ الصراع بين بريطانيا وتيودور .

لم تكن أخبار تصرفات (تيودور) قد وصلت إلى بريطانيا بعد عندما أرسلت السيد (كيرانس) Kerans للعمل كنائب للقنصل كامبيرون فقام تيودور بإلحاقه برئيسه في السجن . ولما وصلت أجبار كامبيرون ومن معه إلى بريطانيا في أبريل 1864م بدأت هذه الأخيرة تحاول إصلاح ما حدث من حكومتها وذلك بالرد على رسالة تيودور برسالة مماثلة اجتنبت فيها استعمال العبارات الشديدة أو التلميح بالتهديد خوفا من تعرض الرهائن للتعذيب أو الموت . وتحدثت فيها عن استمرار الصداقة وضرورة وجود حسن النوايا بين الطرفين ، وذلك من أجل التخفيف من غضب وتوتر تيودور حتى يفرج عن الرهائن الأوربيين . وتم توقيع الرسالة من طرف الملكة البريطانية يوم 26 ماي 1864م ونقلها مبعوث خاص للملكة إلى تيودور، لكن الرسالة لم تصل إلى (تيودور) إلا بعد أكثر من سنة من إرسالها لسببين هما أن مبعوث الملكة بقي في (مصوع) التي كانت خاضعة للمصريين آنذاك ينتظر رد تيودور على طلب السماح له بدخول الأراضي الإثيوبية و الذي لم يصله إلا في أوت 1865م . و وعند وصول الإذن كان حينها قد حل موسم الأمطار وانتشار الأوبئة في تلك المناطق لذلك أرسل مبعوث الملكة إلى تيودور يستأذنه بتأخير السفر إلى الحبشة إلى شهر أكتوبر .

غادر المبعوث البريطاني ورفاقه (مصوع) يوم 16 أكتوبر 1865م ودخلوا الحدود الحبشية في نوفمبر . ووصلوا إلى مئمة كما طلب منهم تيودور يوم 28 ديسمبر 1865م ، حيث قدم عليهم حرس خاص لتيودور لمرافقتهم إلى معسكر الإمبراطور . ولما وصلوا إلى مقر الإمبراطور (تيودور) سلموا له الرسالة في المقابلة الأولى ثم بدأهم بالكلام حيث شن

حملة عنيفة ضد القنصل كامبيرون والمبشرين الأجانب وعاب عليهم سلوكهم أما في المقابلة الثانية فقد أخذ المبعوث البريطاني الفرصة للحديث وقدم الهدايا لتيودور والتي كان لها وقع حسن في نفسه حيث التفت إلى المبعوث وأبلغه بأن الأوامر قد صدرت للإفراج عن المعتقلين وسلمه رسالة إلى الملكة فيكتوريا عبر فيها عن أسفه عن هذا التصرف وطلب منها الصفح والنصح لا المعاتبة واللوم.

خرجت البعثة البريطانية قاصدة قرية (كوراتا) Korata على مقربة من مخرج النيل الأزرق فمكنت هناك أساييغ ولم يصل إليها أحد من المعتقلين على الرغم من الرسائل اليومية تقريبا التي كان يرسلها (تيودور) إلى رئيس البعثة يؤكد فيها قرب وصول المعتقلين . وأمام هذا التماطل في إطلاق سراح المعتقلين بدأ المبعوث البريطاني يتفطن لمكر تيودور وأساليب خداعه وسوء نواياه . وبعد أكثر من شهر بدأ المعتقلون يصلون قرية (كوراتا) وقد بدى عليهم تدهور الصحة من التعذيب وثقل الأغلال .

بعد وصول المعتقلين إلى (كوراتا) قدم على المبعوث البريطاني وفد إمبراطوري يحمل رسالة من (تيودور) يطلب فيها محاكمة القنصل كامبيرون والأوربيين الذين معه وفق قائمة طويلة من الاتهامات . فلم يكن من المبعوث البريطاني إلا أن عقد جلسة عمومية في خيمته وقرأ على الحاضرين الاتهامات الموجهة ضدهم . ثم كتب إلى الإمبراطور يخبره بأن جميع المعتقلين اعترفوا بالتقصير وهم يطلبون الصفح . وفي هذه الفترة استدعى الإمبراطور (تيودور) رئيس البعثة البريطانية وجماعته لتوديعهم — كما قال — أما الأوربيين الذين كانوا معتقلين فقد سمح لهم بالرحيل إلى (غوندار) ثم إلى الخارج . عادت البعثة البريطانية إلى خيمة تيودور وتم اعتقالهم فيها ونصبت لهم محاكمة هناك بتهم أهمها سماح رئيس البعثة للمعتقلين الأوربيين بالرحيل دون مصالحة مع الإمبراطور . وأنه كان يمرر رسائل إلى الخارج دون علم منه ثم اقتيد رئيس البعثة وزميلاه إلى خيمة مجاورة قضا فيها ليلتهم . كما أعيد الأوربيون الذين كانوا في الاعتقال من منتصف طريقهم حيث وصلوا إلى الديوان الإمبراطوري في 15 أبريل 1866م . وفي اليوم الموالي بدأت محاكمتهم في وسط ساحة مكشوفة بحضور قرابة ألف شخص إثيوبي يتوسطهم الإمبراطور (تيودور) . وبعد انتهاء المحاكمة أعيد الجميع إلى سجنهم . وفي اليوم التالي تمت محاكمتهم ثانية وانتهت بقرار (تيودور) أن أحد المبشرين وهو الأب (فلاد) Flad سينقل رسالة خاصة منه إلى الملكة فيكتوريا تحمل نقطتين . أولهما أن القنصل كامبيرون سيفرج عنه وأما مبعوث الملكة فسيبقى محتجزا . وأما الثانية فتحمل طلب تيودور من الملكة إيفاد مجموعة من المهندسين البريطانيين الماهرين في الصناعة ليساعدوا في تطوير بلاده .

انتقل القس (فلاد) بالرسالة إلى لندن وبقي الآخرون ينفلون من معتقل إلى آخر ويعانون مرارة الاعتقال وهم ينتظرون عودة (فلاد) بالرد الذي تأخر كثيرا . وكان سيتأخر أكثر لولا ارتفاع أصوات من البريطانيين تطالب الحكومة بإنقاذ هيبتها التي أهينت في إفريقيا .

وأمام هذا الضغط قررت الحكومة البريطانية معالجة هذه المسألة وهيأت مجموعة من المهندسين والفنيين المختصين في مختلف الصناعات لإرسالهم إلى إثيوبيا . وزودت (فلاد) برسالة من الملكة فيكتوريا صدرت عن القصر في 01 أكتوبر 1866م وصيغت بمنتهى الحذر رغم أن باطنها كان يحمل اللوم على تيودور لسجنه القنصل البريطاني كامبيرون و مبعوثها* .

حمل (فلاد) رسالة الملكة واصطحب معه العمال والفنيين وغادروا بريطانيا في أكتوبر 1866م ووصلوا (مصوع) في شهر ديسمبر . حيث بقوا هناك إلى أن يطلق سراح المعتقلين وحينها تشحن المعدات مع العمال إلى إثيوبيا . لكن تيودور تفطن إلى هذه الحيلة البريطانية و كتب إلى المبعوث البريطاني في سجنه يشكر الملكة فيكتوريا على هذا العطف والود . و طلب

منه التوسط عند الملكة لنقل العمال والمعدات إليه . وهو ما أزعج بريطانيا فقررت الحكومة سحب العمال والمعدات إلى بريطانيا ، كما قررت تأجيل البت في هذه الأزمة بصورة مؤقتة ، لأن الأزمة الإثيوبية أصبحت مسألة مستعصية مادام (تيودور) في الحكم . كما رأت أن فرض عقوبات على إثيوبيا أمر يعرض حياة الرهائن الأوروبيين للخطر .

أما المعتقلون فقد صب عليهم (تيودور) جام غضبه وبدأ في تعذيبهم منذ حلول ربيع 1867م حيث زيد من أغلال القنصل كامبيرون وتم تقييد المبعوث البريطاني وزميليه ، لكن فيما بعد تم إسكان المعتقلين الأوروبيين في أكواخ وأعطيت لهم الحرية للتجوال داخل محيط تلك الأكواخ . كما تعاطف مع هؤلاء المعتقلين الكثير من الإثيوبيين نبلاء وغيرهم ، وأصبحوا يشفقون على حالهم. ولولا خوفهم من تيودور لأطلقوا سراحهم .

وأمام السياسة الاستبدادية لتيودور وتصرفاته التي تنقصها الحكمة بدأ أعوانه يتفرقون من حوله وبدأ جيشه يتناقص . وبدأت فتنة الانقسام والفوضى تفتك بالبلاد ، حيث رفضت ثلاثة أقاليم مهمة الانصياع لحكمه واستقلوا عنه في بداية سنة 1867م وهم (تيغري وغوجام وشوا). وظهر زعماء في هذه الأقاليم ينافسونه على الحكم مثل يوحنا الرابع و منليك الثاني . وهما اللذان سيتوليان الحكم بعده (6).

ب/ تنفيذ الحملة البريطانية على إثيوبيا :

خسر تيودور الجبهتين الداخلية والخارجية أمام تماديه في سياسته العدائية تجاه الكثير من الإثيوبيين وإفساده للعلاقة الدبلوماسية بينه وبين بريطانيا . لذلك لم يبق لبريطانيا إلا إست عمال لغة السلاح كحل أخير لإنقاذ سمعتها . فأرسلت إليه رسالة شديدة اللهجة كانت بمثابة إنذار أخير لإطلاق سراح المعتقلين فوراً. لكنه لم يرد عليها ، لذلك أصدرت الحكومة البريطانية أوامرها لوزارة الحرية للتعامل مع هذه المشكلة بالقوة العسكرية. واختير لقيادة الحملة المارشال (روبرت نابيير) Robert Napier. وقبل البدء في الحملة قامت بريطانيا بتشكيل فرق لدراسة الميادين التي لها علاقة بالحملة خاصة سكان تلك المناطق وطبيعتها ومسالكتها وذلك من خلال مذكرات الرحالة والعلماء الأوروبيين الذين زاروا تلك المناطق .

انتهت التحضيرات البريطانية لهذه الحملة سنة 1867م وقدم (نابيير) كشفه الأولي لتكاليفها والذي قدره بتسعة ملايين من الجنيهات البريطانية كما قدر عدد الجيش بثلاثة عشر ألف جندي (13000) منهم أربعة آلاف (4000) أوربي وتسعة آلاف (9000) من المتطوعين المحليين وغيرهم . كما قدر عدد الحيوانات التي يحتاجونها للكبب بخمسة وخمسين ألف من البغال و أربعة وأربعين فيلاً لحمل المدافع الثقيلة . أما من ناحية الطعام فقد روعي إحتلاف أديان المشاركين في الحملة وأعدت آلاف الأطنان من الخضروات المجففة و خمسين ألف طن من لحوم البقر والغنم (حتى شبهها بعضهم بأنها حملة ترفيحية وليست حملة عسكرية) . وتم اختيار موقع (زولا) على ساحل إريتريا الحالية للتزول به والذي كان تابعاً لمصر آنذاك (7).

وصلت طلائع الحملة إلى زولا في منتصف أكتوبر 1867م و معظمهم من المهندسين لتشييد الميناء والمخازن وبعض الثكنات . وخلال شهرين نشأت في هذا المكان الخالي مدينة عامرة بالناس وقد شيدت بها المستشفيات . تقدمت طليعة من هذه الحملة متكونة من مهندسين ورجال مخبرات نحو الأراضي الداخلية بقيادة الكولونيل (ميرويدز) فوصلت إلى بلدة (سيناف) Senafe التي تبعد عن الساحل بحوالي خمسة وسبعون كيلومتراً (75 كم) وهنا كتب (ميرويدز) رسالة إلى تيودور يطلب منه إطلاق سراح المعتقلين لتجنب بلاده هذه الحملة ، ويحملة مسؤولية تعرضهم لأي خطر.

ومن ناحية أخرى فقد تم اختيار خمسة آلاف جندي من خيرة الجنود اليتيم بهم اقتحام قلعة (ماغذالا) واحتلالها . أما البقية فأوكل إليهم مهمة حراسة الطريق وتأمين المواصلات بين الجيش والساحل .

وفي 25 جانفي 1868م انتقل (نابيير) إلى مرتفعات الحبشية للالتحاق بالقوة الرئيسية للإشراف على العمليات العسكرية . وفي ها الوقت كان الكولونيل (ميرويدز) يعمل على توطيد العلاقات مع الأهالي ويؤمنهم على أموالهم وممتلكاتهم وحرياتهم كما كان يجري اتصالات مع رؤساء الأقاليم المناوئين لتيودور مثل (كاساي) kasai زعيم إقليم التيغري قصد استعمالهم لإنجاح الحملة .

لم يلق الجيش البريطاني مقاومة في طريقه إلى (تيودور) إلا في حالات بسيطة بل بالعكس أنه وجد ترحيبا من (كاساي) الذي مرت الحملة على أراضيهِ والذي استقبل قائدها (نابيير) بحفاوة وأعلن له تأييد الحملة على عدوهم المشترك . وفي 5 أبريل 1868م اقتربت الحملة من قلعة تيودور حيث أصبح مخيمه حول القلعة يظهر للجيش البريطاني في أعلى سفوح الهضبة ، والذي لا يمكن الوصول إليه عن ممر واحد . هنا توقف زحف الجيش البريطاني للراحة استعدادا للهجوم الحاسم . ثم تم اختيار ألفين من خيرة المحاربين ليقوموا بهجوم مباغت لفتح الممر الرئيسي للقلعة بمساعدة المدفعية . أما كتائب الفرسان فقد كانت على استعداد للهجوم والمطاردة . كما تم الاتفاق مع قبائل (غاللا) المعادية لتيودور لتطويق المنافذ المحيطة بالقلعة لمنع تيودور وأعوانه من الهروب . وهنا بعث (نابيير) بإنذاره الأخير إلى تيودور جاء فيه مايلي : « بأمر ملكة إنجلترا أنا قادم بجيشي إلى قلعة ماغذالا لإنقاذ المبعوث (رسام) والدكتور (بلانك) والملازم (بريدو) والأوربيين الآخرين من قبضة جلالته . إني لأرجو من جلالته أن ترسلهم إلى معسكرهم عندما تكون المسافة بيننا قريبة لضمان وصولهم بأمان » (8).

وفي يوم 9 أبريل بدأت مجموعة من جيش نابيير بتسلق المنحدر الصخري كما بدأت الوحدات الخلفية بالتخفيف من أحمالها والتوغل في المرتفعات . في الوقت الذي كان تيودور يراقب جيش نابيير الهائل وهو مؤمن بأن مناعة قلعة وقوة ومهارة فرسانه سيجعلانه ينتصر على هذا الجيش وقد مد فوق منحدرات الطريق مدافعه السبعة ومدفع الهاون الضخم الذي صنعه الألمان العاملين عنده . ووزع تيودور رجاله حول الأماكن الرئيسية التي يمكن الصعود منها وزاد من العوائق . لكنه بدأ يفقد اتزانه وزاد غضبه نظرا لتفرق الكثير من أعوانه عنه ، فمرة تجده يتفقد جيشه ومرة يحتسي الخمر ، ومرة أخرى يقصد الكنيسة للتعبد وطلب المغفرة .

وفي 9 أبريل أصدر (نابيير) الأمر بالهجوم حيث قامت مجموعة من الجيش بصعود المرتفع فهاجمهم جنود تيودور بأسلحتهم البدائية ، فرد عليهم البريطانيون بأسلحتهم النارية وأسقطوا منهم حوالي ثمانمائة قتيل وفر الآخرون هاربين . ولكن ذلك لم يش عزيمة الأحباش فعاودوا الهجوم ثانية وثالثة حتى خيم الظلام . وهنا قام تيودور بمراسلة رسام المبعوث البريطاني لكي يتوسط بينه وبين (نابيير) من أجل إيجاد صلح . فاقترح رسام عليه إيفاد وفد له من أجل ذلك صباح الغد . وفعل في صباح الحادي عشر من أبريل خرج هذا الوفد وتوجه إلى معسكر نابيير وقدموا له عرض الصلح فرد (نابيير) برسالة إلى تيودور عرض عليه فيها الاستسلام وتسليم المعتقلين في ذلك اليوم وتعهده له فيها بمعاملة مشرفة له ولأسرته . ولكن تيودور عندما اطلع على هذا الرد غضب واستدعى سكرتيره وأملاه رسالة أخرى إلى (نابيير) أوضح فيها بطولاته وقدرته على التصدي للإنجليز ، وأنه لا يحتاج لعطفهم . وأمام هذا الوضع قرر تيودور إطلاق سراح الأسرى الذي تم بالفعل . والذي — فيما يبدو — كان يريد من ورائه عدول الإنجليز عن مواصلة حملتهم عليه . ثم حاول استغلال فرصة عيد الفصح لدى المسيحيين لتقديم هدية لنابيير تمثلت في ألف رأس من البقر وخمسمئة من الغنم لإطعام الجيش البريطاني .

لكن (نايبيير) رفضها وقرر الهجوم على عليه في 12 أبريل ، حيث بدأت بالمدفعية البريطانية بقصف القلعة لمدة طويلة . وهنا سمع نايبيير بأن تيودور قد هرب ، فأرصد مكافأة للقبائل لمن يأتي له به حيا أو ميتا ، وأعطى أوامره بمهاجمة القلعة التي وصلها جيشه مساء ذلك اليوم حيث لم يستطع الجنود الأحباش التصدي لهجوم الإنجليز وردهم عنها . وعند صعود الجنود البريطانيين إلى سطح القلعة شاهدوا جثة رجل ميت تبين فيما بعد بأنها جثة الإمبراطور (تيودور الثاني) الذي كان قد انتحر بمسدسه بعد تمكن الإنجليز من اقتحام القلعة . وكان هذا المسدس أحد المسدسين اللذين أهدتهما له الملكة فيكتوريا . وهكذا اختار (تيودور) لنفسه نهاية عنيفة كما كانت حياته عنيفة . واستولى (نايبيير) على كنوزه النفيسة التي كان قد جمعها من الكنائس والأديرة . ومن بين ما أخذ (نايبيير) إلى لندن الكثير من المخطوطات و تاج تيودور الذي أعيد إلى الحبشة فيما بعد ، وأما المخطوطات فقد وضعت في المتحف البريطاني(9) .

ولما أراد الإنجليز الانسحاب من أثيوبيا بعد نجاح حملتهم عليها قاموا بمكافأة حليفهم الجديد يوحنا فأهدوه كمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة ليعطوه بها التفوق والانتصار على أعدائه ومنافسيه وليصنعوا منه رجل أثيوبيا مستقبلا . ويحققوا مآربهم السياسية بجعله الحاكم المطيع لأوامر بريطانيا في تلك المنطقة .

ومما يؤكد رغبتهم هذه هو عقد بريطانيا اتفاق تحالف بينها وبين (يوحنا) سنة 1884م(10) . و ينص هذا الاتفاق على أن يقوم يوحنا بمحاربة المهديين في السودان لفك الحصار عن الحاميات المصرية و الأوربية في بعض المدن السودانية مقابل استعادة يوحنا للأراضي الواقعة على الحدود السودانية ، والتي كانت مصر قد احتلتها منذ فترة قصيرة . كما طلب بأن تكون له السيطرة على (مصوع) . فوافقت بريطانيا على طلبه الأول لكن فيما يخص الطلب الثاني وعدته بأنها ستترك له حرية عبور سلعه عبر ميناء (مصوع) بما في ذلك الأسلحة .

ولكن هذا الاتفاق لم يدم طويلا نظرا لاحتلال الإيطاليين لمصوع وذلك بموافقة البريطانيين أنفسهم من أجل وقف الطموح المتزايد للفرنسيين في المنطقة ومنع توسعهم بها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أرسلت بريطانيا مبعوثا ليوحنا تطلب منه الموافقة على احتلال إيطاليا (لساهاتي و أويا و سيناهايت أو بوغوس) التي كان المصريون قد انسحبوا منه سنة 1884م(11) .

ورغم أن بريطانيا كانت تساند إيطاليا في توسعها على بعض الأراضي الإريترية لمنع فرنسا من التوسع في تلك المنطقة إلا أنها كانت تسعى إلى الحفاظ على استقلال الأراضي الإثيوبية . ويظهر ذلك من خلال الاتفاق الذي وقعته مع إيطاليا وفرنسا سنة 1906م . عندما شعرت هذه الدول بتدهور صحة الإمبراطور (منليك الثاني) إمبراطور إثيوبيا وخافت من تفكك مملكته بعد وفاته . حيث أكدت في هذا الاتفاق رغبتها في الحفاظ على استقلال إثيوبيا . وفي حالة وفاة (منليك) يأخذ كل طرف من الأطراف الثلاثة منطقة نفوذ خاصة به تكون على النحو التالي :

أ/ المنطقة البريطانية : وتمثل إقليم بحرية (تانا) وحوض النيل الأزرق .

ب/ المنطقة الفرنسية : وتمثل الخط الحديدي الممتد من أديس أبابا إلى جيبوتي .

ج/ المنطقة الإيطالية : وهي عبارة عن رواق من الأرض يربط الصومال الإيطالي بإريتريا .

وعند تولي (ليج ياسو) الإمبراطور المسلم حكم البلاد سنة 1913م . قامت بريطانيا بتأليب الإثيوبيين والكنيسة ضده واتهامه بالميل إلى تركيا التي كانت منحازة إلى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى . حيث سارعت بريطانيا على رأس الدول الأوروبية إلى التنسيق مع رجال الكنيسة الإثيوبية ومساعدتهم على عزل (ليج ياسو) . فأخذوا يحكيون الدسائس ويؤلبون الأمراء المسيحيين ضده ، كما قاموا بنشر شائعات مفادها أنه يتعاون مع الأتراك الذين يخالفون الألمان في الحرب العلمية

الأولى. كما اجتمعت قنصل كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وقدموا له احتجاجا على تصرفاته وأتهموه بمخالفة الألمان ، لكنه لم يأبه بهم . فبدؤا بتحريض أمراء شوا لإعداد جيوشهم ضده . وعندما كان الإمبراطور (ليج ياسو) في هزر أوعز بطريك الأقباط في مصر بإيعاز من بريطانيا التي كانت تحتل مصر آنذاك على المطران (متاؤوس) بإعلان عزل الإمبراطور (ليج ياسو) . وهو ما تم بالفعل ، حيث أظهر المطران أن هذا الإجراء تم على اثر طلب تقدم به رؤساء وحكام مقاطعة شوا يقولون فيه : « نلتزم إحلالنا من قسمنا بالولاء للإمبراطور لأننا سوف لن نخضع للإسلام ، ولن نسمح بأن يستولي الأجانب على بلادنا عن طريق خيانة (ليج ياسو) الذي يقود مملكتنا إلى الخراب ، ولن نسمح للملك ترك ديننا أن يحكمنا ... وسوف نصيح (زاوديتو) ابنة منليك ملكة علينا والرأس تفري وليا للعهد » (12) .

ثم ازدادت العلاقات سوءا بين الإمبراطور الجديد والقوى الأوروبية وعلى رأسهم بريطانيا عند إعلان اعتناقه الإسلام وبذء للديانة المسيحية، وتردده على المساجد .

كما قوى (ليج ياسو) صلاته بمسلمي هزر وأصر على كتابة الشهاداتين على العلم الأثيوبي بحروف أمهرية، وأحسن استقبال القنصل التركي عند زيارته للحبشة . مما أثارت تخوف الدول الأوروبية من هذه العلاقة ، خاصة في المراحل الأولى من الحرب العالمية الأولى التي توالى فيها الانتصارات الألمانية والتركية ورأت الدول الأوروبية ضرورة اتخاذ موقف حازم ضده ، وخاصة أن الظروف كانت مهيأة بوجود مستعمرات الدول الأوروبية الثلاثة محيطة به كمستعمرة جيبوتي التي تجمعت فيها القوات الفرنسية وتعاونت مع القوات البريطانية في (بربرة) والإيطالية في (مصوع) .

تم عزل الإمبراطور (ليج ياسو) في 17 سبتمبر 1917م . وأعلم المطران تنصيب (زاوديتو) ابنة منليك إمبراطورة على إثيوبيا ، وتعيين الرأس (تيفري) ابن الرأس (ماكونن) وصيا على العرش ووليا للعهد (13).

وأما (ليج ياسو) فقد انسحب من العاصمة أديس أبابا متجها إلى إقليم (والو) ذو الأغلبية المسلمة من الجالا واتصل بمسلمي الصومال وكان يأمل في القيام بحركة إسلامية في شرق إفريقيا مستعيدا حكمه ولكن مقاومته لم تستمر طويلا فقد قبض عليه وبقي في السجن حتى سنة 1935م حيث تقول بعض الروايات أنه قد مات في السجن .

وبعد تولى (زاوديتو) حكم البلاد قام البريطانيون بتقديم الدعم السياسي للرأس (تيفري) الذي كان وصيا على العرش ويتولى الشؤون الخارجية لإثيوبيا . لذلك حققت إثيوبيا في تلك الفترة مكاسب سياسية عالمية كان أهمها قبول عضويتها في عصبة الأمم سنة 1923م .

لم تهمل بريطانيا مصالحها السياسية والاقتصادية في إثيوبيا ، حيث نجدها حكومتها (حكومة العمال) قد دخلت في مفاوضات مع إثيوبيا سنة 1924 بشأن بحيرة (تانا) ولكن هذه المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة غير أن الحكومة البريطانية «حكومة المحافظين» التي تلتها أبرمت مع الحكومة الإيطالية اتفاقا في ديسمبر سنة 1925 تقرر فيه — طبقا للمذكرة البريطانية المؤرخة في 14 ديسمبر سنة 1925 — أن تقوم الحكومة البريطانية بمساعدة الحكومة الإيطالية في طلبها الخاص بإنشاء خط سكة حديد من إريتريا إلى الصومال الإيطالي عن طريق غربي إثيوبيا ، مقابل دعم الحكومة الإيطالية لها في طلبها الخاص بالحصول على امتياز لبناء خزان على بحيرة (تانا) وطريق للسيارات من (أديس أبابا) إلى السودان . وإذا تم ذلك تعد الحكومة البريطانية بأن: «تعترف بتفرد النفوذ الاقتصادي الإيطالي في غربي إثيوبيا وفي جميع المنطقة التي سيمر بها خط سكة الحديد المشار إليه سابقا ، وتعد أيضا بتأييد جميع المطالب الإيطالية قبل مطالب الحكومة الإثيوبية لنيل

امتيازات اقتصادية في هذه المنطقة» (14). ويذكر أن هذا الاتفاق البريطاني الإيطالي يتعارض في ظاهره مع نصوص الاتفاقية الثلاثية لسنة 1906. ولتي تعطي امتيازات اقتصادية لبريطانيا وإيطاليا وفرنسا، وتدعو إلى احترام استقلال إثيوبيا. وهنا لم تقف الحكومة الإثيوبية مكتوفة اليدين بل عارضت هذا الاتفاق، وأبلغت ذلك إلى كل من الحكومة البريطانية والحكومة الإيطالية، وانتهت إلى إبلاغ اعتراضها هذا إلى عصبة الأمم.

ويبدو أن بريطانيا تسعى من خلال هذه المواقف إلى إيجاد توازن بين الحفاظ على علاقتها بإثيوبيا ومصالحها هناك وبين علاقتها بإيطاليا في تلك الفترة. لكن الأمر تغير خلال ثلاثينيات القرن الماضي، خاصة عند توتر العلاقات في أوروبا. لذلك نجد بريطانيا تقف إلى جانب إثيوبيا في الأزمة التي حدثت بينها وبين إيطاليا في حادثة (وال وال) (15) سنة 1934م. حيث كانت عضوا في لجنة التحكيم، ووصلت في تحقيقا إلى أن الإيطاليين هم الذين بدأوا بالاعتداء في هذه الحادثة الحدودية. كما وقفت أيضا إلى جانبها عسكريا وساعدتها على التحرر من الاحتلال الإيطالي، خاصة بعد انضمام الإيطاليين إلى جانب الألمان في الحرب العالمية الثانية، وذلك في جوان 1940م. وبعد تحريرها سنة 1941م حاولت بريطانيا إبقاء وصايتها السياسية عليها. وتوجيه سياسة (هيلاسيلاسي) إلى درجة أن هذا الأخير صار يشكوها للولايات المتحدة الأمريكية في بعض الأحيان. وفي الأحيان الأخرى يتعمد مخالفتها سياسيا (16).

الهوامش

1) Edward Hertslet : The map of Africa by Treaty , vol 1 , London , 1894 , p 02 .

2) Ibid , p 02 .

(3) يحي جلال : التنافس الدولي في بلاد الصومال ، دار المعرفة — القاهرة ، 1959 ، ص 13 ، 14 .

(4) أمال إبراهيم : مرجع سابق ، ص 131 ، 132 .

* جاء في العبارات التي كتبت على المسدس مايلي : « هدية إلى تيودور إمبراطور الحبشة من فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وايرلندا تقديرا لعطفه على خادمها بلودن سنة 1861 » . أنظر، العارف : مصدر سابق ، ص 167 .

(5) فتحي غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، 2001 ، ص 191 — 193 .

* مما جاء في رسالة تلك الرسالة ما يلي : « لقد أرسلنا لك عددا من الفنانين البريطانيين للعمل في خدمة بلادك والمساهمة في تطويرها . ولكننا في الحقيقة تملكنا الدهشة والحيرة إزاء بعض ما صدر منك من أعمال لا نستطيع التوفيق بينها . فبينما تظهر لنا كل معاني الصداقة والتقرب تقوم من الناحية الثانية بزج قنصلنا كامبيرون مندوبنا الخاص رسام في السجن ... إن السفراء والمندوبين الخاصين لهم مكانة محترمة وحقوق مصانة حسب العرف الدبلوماسي بين الأمم المتحضرة ولذلك نرجو المبادرة بإطلاق سراح المعتقلين لتثبت للعالم المتمدن أنك تقدر مكانتك بين ملوك العالم » . أنظر ، العارف : مصدر سابق ، ص 179 .

(6) Cornevin . j : Histoire de L'Afrique, T 2 , Payot – Paris , 1966 , p 204 .

(7) غيث : مرجع سابق ، ص 197 .

(8) ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت — صيدا ، 1975 م ، ص 192 .

(9) غيث : مرجع سابق ، ص 199 .

(10) نفسه، ص 196 — 203 .

(11) م.ب. أكبان : ليبيريا وأثيوبيا (1880-1914) بقاء دولتين إفريقييتين (تاريخ إفريقيا العام -يونيسكو) ج1997 ، ص 273 — 274 .

(12) غيث : مرجع سابق ، ص 258 — 259 .

(13) إسماعيل أحمد ياغي و محمود شاكرا : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ج 2 ، دار المريخ — الرياض — السعودية 1992 ، ص 255

(14) عبد الله حسين : المسألة الحبشية ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة . ص 47 .

(15)-Unesco : Histoire général de la L Afrique – depuis 1935 , T 8 , Editions , p 62 .

16) Pankhurst .R : The Ethiopian Patriots and the collapse of Italian rule in East Africa 1940 -1941 , Ethiopian observer , 1969 , p 153 .